ابن خلدون في المدرسة العادلية

— ٢ —

أيها السادة :

كان آخر عهدنا بابن خلدون في المحاضرة الماضية انه تدلىّ ليلا من فوق السور الى معسكر تيمور مع رهط من أعيان دمشق لمفاوضته في أمر الصلح . وكان بصحبته تلميذه ابن الزملكاني فعاد هذا الى المدرسة العادلية عند هزيع من الليل . فتلقاه رفاقه الطلبة متشوفين الى استماع أخبار الوفد . وقعدوا جميعهم حول كانون النار يستدفئون و يتحدثون عن اولئك الأعيان . وما سيكون منهم . وما يوفقون اليه من شرائط الصلح : وكانوا يلحون في السؤال عن ابن خلدون واستطلاع أحواله . فكان تلميذه ابن الزملكاني يقص عليهم ما يعرف من أمره . ومبتدأ خبره . حتى جاء الثلث الأخير من الليل فران الكرى على عيونهم . وملك النعاس عليهم امرهم . ومع هذا بقوا في انتظار رجوع الوفد . ثم اقنعهم ابن الزملكاني بأن اعضاء الوفد لا يمكن ان يعودوا من معسكر تيمور في الليلة نفسها . وانما هم سيبيتون في المعسكر . و يعودون الى المدرسة العادلية في ضحوة النهار . فنهض الطلاب اذ ذاك من حول النار الى مضاجعهم وتوزعوا في غرفهم .

وهكذا فعلنا نحن في المحاضرة الماضية : فقد غادرنا ردهة المحاضرات هذه على أمل العودة اليها وها نحن أولاء قد عدنا والعود احمد

هبَّ طلاب المدرسة العادلية من مضاجعهم سحرا . واقبلوا زرافات ووحدانا الى محال الطهارة . فتوضأوا ثم صلوا صلاة الصبح وأموا الغرفة التي كانوا يسمرون فيها البارحة . واذا احدهم أقبل على إخوانه وبيده كتاب :

ـــ ما هذا ؟

ـــ شرح الالفية : فقد وصلنا في المطالعة البارحة الى قول ابن مالك

(ولا يسوغ الابتدا بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمره)

وأحب أن نتمم هذا البحث . فقال له رفيقه الذي بجانبه وكان حديد المزاج دعنا بالله عليك من ابن مالك . والألفية . والابتداء . والنكرة . والنمرة . فان الأمر أعظم من ذلك وهذا الجبار تيمور يهدد البلد بالشر والنكد . فلنتحدث بما يزيل الكمد . لا بما يوهن الجلد . ولننتظر عودة الوفد لنرى ماذا تم الاتفاق عليه ؟

عندها عادوا الى حديث الوفد واخبار ابن خلدون خاصة : فان الامال كانت معقودة به ومحومة عليه وكانوا كلما سمعوا من تلميذه (ابن الزملكاني) وصف ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء في السياسة وتدبير امر الملك ـ انتعش أملهم بنجاح الوفد . و وصوله الى صلح شريف مع تيمور .

قال ابن الزملكاني : يكفينا فخراً معشر العرب أن واحداً منا وهو ابن خلدون كان أول واضع لعلم العمران : فهو الذي جمع شوارده و رفع قواعده . وجعله علما بأصول . ولم يكن بحثه في علم العمران بحثا نظرياً تقليديا . بل بحثاً عمليا اجتهاديا . اعتمد فيه على اختباراته الخاصة . وانتزع قضاياه ومسائله من تفكيره الشخصي . فهو في علم العمران مجتهد مطلق كالائمام

ابي حنيفة في الفقه الاسلامي . أو كأرسطو في علم المنطق

وقد اتفقت كلمة العارفين بابن خلدون على ان عقله ومداركه بلغت الأمد الاقصى في الحصافة والمتانة والتوقد لكنهم عابوه من جهة عاطفته واخلاقه . نعم ايها السادة إن ابن خلدون انسان ومهما توفرت في شخص ما شروط التربية لا بد ان يبقى على ضعف في بعض مناحي اخلاقه . على ان كثيراً مما عابوه به ليس بموضوع للعيب ولا بمظنة للريب. مثال ذلك ان الحافظ ابن حجر عابه بانه كان متكبرا . وان القضاة دخلوا عليه يوماً فلم يقم لهم . وانه فظ غليظ الطبع : فكان يعذر المذنب بالصفع . ويسمي هذا الصفع (زجا) . وعندي ان طعن ابن حجر المصري فيه غير جدير بالقبول : لما كان بين الرجلين من المنافسة عدا التباين في المشارب الاخلاقية والمنازع الدينية. احدهما وهو ابن حجر كان مقلدا جامداً عاش طول عمره يفكر بعقل غيره . اما ابن خلدون فقد عاش حراً مستقلا يفكر بعقله الذي وهبه الله اياه ليعمل به لا ليعطله . على ان ما وصفه به ابن حجر ينافيه ما وصفه به لسان الدين بن الخطيب وزير الاندلس فقد قال فيه : (انه كان حسن الخلق . جم الفضائل . ظاهر الحياء) فأين هذا مما وصفه به ابن حجر من سوء الخلق وضعف ملكة الفضائل .

وقال آخر : إن ابن خلدون ترجم نفسه في كتاب خاص ولم يفعل احد قبله . لكن لم يقصد بتدوين ترجمة حياته الا التبجح وتزكية النفس . وهذا من امارات صلفه وزهوه . هذا ما قاله بعضهم وبطلانه ظاهر . وكان الأجدر ان يمدح ابن خلدون لا ان يذم . وذلك لاختراعه طريقة (ترجمة

النفس) بشكل مفكرات او مذكرات على نمط ما يسمى بالافرنسية اليوم mémoire وقد حذا مقاله علماء الغرب في هذه الطريقة التي ابتكرها واحد من العرب

ومما وصموه به انه لا يشعر في نفسه بعلاقة حب لوطنه او رابطة تربطه به : اذ كان كثير التنقل من قطر الى قطر .

وهذا الاعتراض في غير محله : لأن ابن خلدون في جميع اسفاره لم يخرج من بلاد الاسلام . وهي كلها وطن واحد في اعتقاد المسلمين . بل يمكن ان نقول ان امر ابن خلدون على العكس : اليس ان (بترو) ملك قشتاله كلفه الاقامة عنده وهو يرجع اليه ما كان لاباءه من ملك وعقار في إشبيليته ووعده بالبر زق السني . والعيش الهني . فأبي عليه ابن خلدون ذلك تعلقا بوطنه الاسلامي ؟

وهناك قوم غلوا في نقد ابن خلدون وتنطعوا حتى ظن ان لهم من وراء نقدهم غرضا سيئا : فقد قال احد هؤلاء ان ابن خلدون في ترجمة نفسه ذكر اساتذته ووصف تبحرهم في العلوم فقال المنتقدون ان هذا زهو وكبر من ابن خلدون لأنه يريد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه هو عالم عظيم ما دام شيوخه في هذه المرتبة من العلم والفضل !! وهذا النقد لا يحتاج الى رد

وقالوا ايضا ان ابن خلدون ذكر في جملة كتب الفقه التي درسها مختصر ابن الحاجب ومختصر ابن الحاجب من كتب اصول الفقه لا من كتب الفقه !!! ولكن المتقدمين من علمائنا ما كانوا يفرقون بين الفقه واصول الفقه في التسجية الى هذا الحد ؟

ولمزوه ايضا بأنه ذ ر في ترجمة نفسه انه استظهر جزء من الاغاني ثم ذكر في مقدمته المشهوره انه يستميل الحصول على نسخة من الاغانى يعنون ان هذا تناقض في كلامه. ثم حكموا بأنه لم يعرف من الاغاني الا الاسم. مع ان الرجل قد يكون عني انه لا توجد نسخة كاملة من الاغاني بأجزائها العشرين. اما هو فقد استظهر جزء واحداً ظفر به من تلك العشرين. او يكون اراد انه استظهر جزء اي قسما من اخبار الاغاني مبعثرة هنا وهناك في كتب الأدب التي طالعها

واتهموه بانه متلون في رأيه ومودته وسياسته: رأى ضعف سلطان تونس وقوة سلطان فاس فهرب من الأول الى الثاني. وهذه تهمة ظاهرة البطلان فان الرجل أراد أن يستفيد من علماء موجودين في فاس لم يكن موجوداً مثلهم في تونس وكان ملك تونس يحول بينه وبين غرضه فهرب ويا حبذا هذا الهرب في طلب العلم ولقاء الشيوخ.

يقولون: وهذه المؤامرات التي كان يدبرها ابن خلدون ضد ملوك المغرب بسائق الحرص على منفعته الشخصية؟

نقول: وهل كل مؤامرة يدبرها رائدها النفع الشخصي فرب مؤامرة أنقذت بها الاوطان. فكانت خيراً من نافلة الصلاة وقراءة القرآن

وقالوا: انه مذ كان قاضيا للمالكية في مصر كان شديداً قاسياً لا يقبل شفاعة على خلاف عادة قضاة زمانه: وهذا منه على حد قولهم في المثل (خالف تعرف)!! مع ان ابن خلدون اعتذر عن عدم قبوله الشفاعات بأنه انما حمله على ذلك رضاء الله تعالى:

هكذا كان ابن الزملكاني يحدث رفاقه في المدرسة العادلية عن استاذه ابن خلدون ثم قال لهم ممتعضاً : و إن تعجبوا أيها الاخوان فعجب قول بعض الناس : إن ابن خلدون لما عاد من الحج واجتمع بسلطان مصر قال له (إنه دعا له في البقاع المقدسة) فزعموا أن ابن خلدون إنما أراد بهذا القول أن يخدع السلطان المملوءة نفسه بالأوهام. فما معنى الخديعة هنا ؟ والرجل راجع من حج ومن عادة الحجاج أن يقولوا لاصدقائهم الذين يسلمون عليهم إننا دعونا لكم في تلك البقاع الطاهرة.

بل أغرب من ذلك كله زعمهم أن ابن خلدون كان يحب المال أشد من حبه لأولاده. ودليلهم على ذلك أنه قال في ترجمة نفسه مشيراً الى حادثة غرق أولاده وامواله في البحر عند ما دعاهم الى مصر : (قد أصابتني نكبة واحدة فأفقدتني الى الأبد المال والسعادة والبنين) قالوا انه قدم المال على البنين في الذكر . وهذا يدل على أن المال يهمه اكثر من اولاده .

هكذا قالوا وهو تحامل بين . إذ ربما كان لابن خلدون في تقديم ذكر المال على البنين غرض اقتضته البلاغة أو الصناعة اللفظية أو أنه قدم المال اقتداء بالقرآن مذ قال تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وإلا فان محبة الولد فطرة في الحيوان . وابن خلدون من ارقى بني الانسان .

وكان بين الطلاب المستمعين لكلام ابن الزملكاني طالب متشيع خشن الطبع فقطع عليه كلامه وقال : وكأنك نسيت كلمة استاذك في ابن البتول سيدنا الحسين صلوات الله عليه وهي قوله (أنه قتل بسيف جده) فلم تذكرها في جملة خطيئاته . فأجابه ابن الزملكاني بكل طمأنينة : (ان استاذي لم يقل

تلك الكلمة هو . و إنما قالها (القاضي ابو بكر ابن العربي المالكي) . فهو راي له ذكره ابن خلدون في بحث و لاية العهد من مقدمته و رده عليه . فصرخ الطلبة كلهم : أحسنت في تبرئة استاذك من وصمة كلمة الحسين . ولكن ما قولك في كلمة أخرى لا شك أنها صدرت عنه ؟ قال : وأية كلمة تعنون ؟ قالوا : كلمته في العرب مذ زعم أنهم أبعد الناس عن السياسة .

وهل هذه الكلمة الملعونة الا حجة للشعوبية وذريعة الى الزعم بأن على العرب ان يتخلوا عن إدارة الممالك للأعاجم الذين مارسوها و و رثوا ملكتها عن أسلافهم ؛ ثم يقولون لهم مالكم وللسياسة دعوها لأربابها واعملوا بقول شاعرهم :

(اني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا)
(و إذا تذوكرت المكارم مرة في مجلس أنتم بـه فتقنعوا)

فلما سمع ابن الزملكاني هذه التهمة الموجهة الى استاذه إمتقع وتلجلج ثم قال : ان استاذي لم يرد بالعرب الا قبائلهم البدوية السارحة في جنبات الجزيرة ، والتي كانت تحيى حياة جاهلية ، تكاد تكون مجردة عن كل نظام وشريعة . وقد مر عليهم قرون متطاولة وهم على تلك الحالة .

أما بعد أن هداهم الله بالاسلام . وتعاليم القرآن . فانهم نهضوا نهضتهم المباركة التي كان من أثرها مدنيات انتشرت من قرطبة الى سمرقند . فاستاذي ابن خلدون إنما اراد ما ذكرت لكم ، بدليل قوله في المقدمة (وانما يصيرون ، اي القبائل البدوية ، الى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية) إلى ان قال : (واعتبر ذلك بدولتهم في الملك فانهم لما شيد لهم الدين

أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطنا وتتابع فيهم الخلفاء — عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم). هذا هو قوله وهو صريح في أنه يعني بالعرب الأعراب البداة لا العرب الذين قاموا بالنهضة الاسلامية . واستضاءوا بنور التعاليم القرآنية .

☆☆☆

ولم يكد ابن الزملكاني يتم كلامه هذا حتى علت الضوضاء والجلبة في جنبات المدرسة العادلية وسمع قائل يقول : جاءوا جاءوا . فهرع الطلاب من كل جانب الى باب المدرسة واذا رجال الوفد وإذا بعضهم دخلوا دار العقيقي (١) أمام المدرسة العادلية والبعض الاخر من رجال الوفد دخلوا المدرسة العادلية الى صحنها فسأل بعض الطلبة ابن الزملكاني قائلا : واين هو استاذك ابن خلدون : قال هذا هو وأشار اليه : فنظر اليه الطالب فاذا هو (مالكي المذهب والمنظر . أصمعي الرواية والمخبر . متعمم بعمامة خفيفة . وهيأة ظريفة وبرنس كهو (٢) رفيق الحاشية . يشبه من دامس الليل الناشية) ومعه القاضي

---

(١) وهي التي بنيت فيها المدرسة الظاهرية وحمام العقيقي الموجود الى اليوم .

(٢) قوله (برنس كهو) كذا في كتاب (عجائب المقدور في أخبار تيمور) ص١٠٢ من النسخة المطبوعة في المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ولعل صواب (كهو) قهو بالقاف محرفة عن (قهي) وأصلها (قوهي) وهو ضرب من الثياب أبيض اللون منسوب الى بلاد قوهستان التي كانت تجلب منها تلك الثياب ثم غلب اسم (القوهي) على كل ثوب يشبه الثياب القوهية ولو لم تكن مجلوبة من قوهستان . ولعلهم عادوا فتوسعوا فيها أيضاً بحيث اصبحت تستعمل في مطلق الثياب النفيسة ولو لم تكن بيضاء اللون كما استعملها ابن عربشاه في صفة برنس ابن خلدون فانه لم يكن أبيض اللون وإنما هو اسوده الليل قوله (يشبه من دامس الليل الناشية) وقوله الناشية يشير الى الاية الكريمة (ان ناشئة الليل هي أشد وطأ واقوم قيلا)

ابن مفلح والجياني وابن ابي الطيب وابن العز وولده شهاب الدين. ثم تفرق رجال الوفد في غرف العادلية. وتبع كل واحد منهم من له علاقة به من المريدين والطلاب. وبعد هنيهة انتشرت الأخبار. وكثر التهامس بها هنا وهناك في صحن المدرسة واروقتها وإيواناتها ثم جعل الطلبة يحومون حول المقصورة التي دخلها القاضي محمود بن العز وولده شهاب الدين. وكان شهاب الدين هذا احد أفراد الشباب الدمشقي (الناهض) الذين يهمهم أمر السياسة ومصير البلاد بعد دخول الفاتح تيمور اليها. فلم يكد يخرج الشاب المذكور من المقصورة التي كان فيها والده ويتوجه نحو الحوض يريد الوضوء حتى التف حوله طلاب العادلية. واجتذبوه من يده الى الايوان[1] الصغير وطفقوا يسألونه عن مقابلتهم لتيمور وما هي شروط الصلح التي استقر الأمر عليها. فذكر لهم شهاب الدين ان خلاصة ما اصطلحوا عليه هو عقد معاهده بالعفو عن دمشق مقابل غرامة مالية كبيرة توزع على الاهالي بمعرفة مؤتمنين منهم.

وسأله (ابن الزملكاني) قائلا: وكيف كانت مقابلة استاذي ابن خلدون لتيمور فقال اسمع:

انا لما دخلنا على تيمور وقفنا بين يديه حصة من الزمن وجلين خائفين ثم سمح لنا بالجلوس وهدأ روعنا. وامر لنا بالطعام فكموا امامنا تلالا من اللحم المسلوق: فبعضنا تعفف فلم يأكل، وبعضنا تشاغل بالحديث عن

---

(١) ولعل هذا الايوان هو موضع غرفة القراءة اليوم

الطعام . وبعضنا (اكل والتهم . وتشجع في هذا الميدان وما انهزم) وكان من جملة الاكلين استاذك عبد الرحمن بن خلدون .

كل ذلك وتيمور يمر نظره علينا هاشاً باشاً مراقباً احوالنا . وسابراً بمسبر عقلة اقوالنا وافعالنا . وكان ابن خلدون يصوب نحو تيمور ايضاً نظره . فاذا نظر تيمور اليه اطرق . واذا اغضى عنه تيمور عاد فنظر اليه وحدق . ولما راى تيمور ان زي ابن خلدون مغاير لزينا قال لنا : ارى ان هذا الرجل — واشار الى ابن خلدون — ليس من بلادكم . فانفتح حينئذ لابن خلدون مجال الكلام فنادى بصوت جهوري :

« يا مولانا الامير . الحمد لله العلي الكبير . لقد شرفت بحضوري ملوك الانام . وأحييت بتواريخي ما ماتت لهم من الايام . ورأيت من ملوك العرب فلاناً وفلانا . وحضرت كذا وكذا سلطان . وشهدت مشارق الارض ومغاربها . وخالطت في كل بقعة اميرها ونائبها . ولكن لله المنة . إذ امتد بي زماني . ومنّ الله علي بأن احياني . حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة . والمسلك شريعة السلطة على الطريقة . فان كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف . فطعام مولانا الامير يؤكل لذلك ولنيل الشرف » .

قال شهاب الدين ابن العز :

فلما سمع تيمور هذا الكلام من استاذك ابن خلدون سر وانشرح واقبل بوجهه عليه يناقله الحديث . وعرف انه مدرهنا . ورئيس وفدنا . فعول في الامر عليه . وجعل يوجه الاسئلة اليه . فسأله عن ملوك العرب واخبارها وايام دولها وآثارها . فقص عليه من ذلك ما خلبه وخبله وحير عقله

وسلبه[1]

ثم انفض طلبة العادلية من حول (شهاب الدين ابن العز) منشرحي الصدور. بما سمعوا من أخبار الوفد مع تيمور . وخاصة ماجرى بينه وبين ابن خلدون . ومما يؤسف له ايها السادة أن تيمور بعد ان انجلى عن دمشق اخذ معه طائفة من اعيان الشام الى سمرقند وكان فيهم (شهاب الدين)ذلك الشاب المحبوب الناهض الذي روى خبر الوفد للطلاب وابوه قاضي القضاة محي الدين ابن العز الذي عذبه تيمور وكواه وسقاه الماء الملح[2] .

وبقيت المدرسة العادلية بعد ذلك اياماً تنتعش[3] بالمترددين اليها من الناس لاستماع الاخبار، ومعرفة ما وقع بين تيمور ورجال الوفد وكان طلبتها يروون للناس من حديث الوفد ما ينقع غلتهم . ويقشع حيرتهم .

من ذلك ما رووه من أن ابن خلدون بقي في ضيافة تيمور خمسة وثلاثين يوماً . وان تيمور كان يعجب بسعة علمه . وغزارة مادته . لا سيما في علمي التاريخ وتقويم البلدان (الجغرافيا) . ومما رواه ابن الزملكاني تلميذ ابن خلدون أن تيمور سأل استاذه عدة أسئلة : من ذلك انه قال له :

— اين بلدك ؟

---

(١) اقول ولا ينبغي أن يعد قول ابن خلدون لتيمور انه يحمد الله على امتداد زمانه حتى رآه مداهنة ونفاقاً فان المسئلة مسألة خلاص ونجاة، ومجاحشة عن الحياة . ولم ينس اهل دمشق بعد جمال باشا وما كان من تملق الكثيرين اليه خوف صولته وبطشه وهم لعمري معذورون في ذلك

(٢) ما مر من اخبار مقابلة اعيان دمشق لتيمور لخصناه من كتاب (عجائب المقدور) لابن عربشاه

(٣) تنتعش هو بمعنى قول ارباب الجرائد اليوم تعج عجيجاً بالناس . وقولهم هذا ليس من كلام العرب في شيء .

— المغرب الجواني .

— ما معنى الجواني في وصف المغرب ؟

— هو في عرف خطابهم معناه (الداخلي) لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه . فالأقرب الى هنا برقة وأفريقية . والمغرب الأوسط تلمسان وبلاد زناتة . والأقصى فاس ومراكش وهو معني الجواني

— واين مكان (طنجة) من ملك المغرب ؟

— في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلا .

— وسجلماسة أين موقعها ؟

— في الحد بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب .

— لا يقنعني هذا واحب أن تخطط لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها . وجبالها وأنهارها . وقراها وأمصارها .

يحصل ذلك بسعادتك .

قال ابن الزملكاني : ثم إن استاذي ابن خلدون انصرف من مجلس تيمور وأقام في كسر البيت [1] واشتغل بما طلبه تيمور منه في وصف بلاد المغرب فكتب في أيام قليلة مختصراً وجيزاً وقع في اثنتي عشرة كراسة منصفة القطع . وقدم ذلك اليه . فأخذه تيمور من

---

(١) لعله يريد بالبيت الغرفة التي كان يبيت فيها من هذه المدرسة العادلية لأنه كان مقيما فيها كما مر

يده . وأمر بترجمته الى اللسان المغولي الذي كان تيمور حاذقا به .

ومن الاخبار التي تداولها الطلاب بينهم أن ابن خلدون أراد أن يتقرب الى تيمور بهدية تساعده على النجاة من شره . فهيأ له هدية نفيسة : وهي (مصحف) بديع الخط ثمين التجليد و (نسخة) من قصيدة البردة الشريفة و (سجادة صلاة) و (علبتين) من حلوى مصر . ثم حمل ابن خلدون هديته هذه الى معسكر تيمور ودخل عليه . فحياه وجلس هنيهة . ثم نهض وتقدم من العرش وقدم التحف اليه واحدة واحدة . فسأله تيمور عن الكتابين فلما علم أن احدهما المصحف تناوله ووضعه فوق رأسه وقبل نسخة البردة الشريفة ثم قام ابن خلدون فذاق الحلوى على مرأى من تيمور طبقاً للرسوم المعتادة . وبعد ذلك أكل تيمور منها ووزع باقيها على من حوله وأقبل على ابن خلدون شاكراً له هديته وسأله عما اذا كانت له حاجة فقال له ابن خلدون : انه غريب في دمشق بعيد عن أهله . وانه هو ورفاقه المصريين في حاجة الى حمايته . فاسعفه الملك بما اراد .

ثم دخل عليه مرة أخرى . فقال له الملك :

— يظهر أن لك بغلة أصيلة .

— نعم يا مولاي .

— هل تبيعها مني ؟

— ليس ثم بيني وبينك من مساومة . واني أهبها لك .

— كلا وإنما أردت بشرائها أن أثيبك على هديتك .

ثم أهدى ابن خلدون البغلة الى تيمور فقبلها منه . وزاره مرة أخرى

فساله الملك: هل تود العودة الى مصر؟ فأجابه ان اكبر أمنية لي ان اتبع مولاي. قال بعض من كتب ترجمة ابن خلدون: ولكن الملك لم يرض أن يأخذ ابن خلدون معه وإنما منحه جوازاً بالعودة الى مصر مع رفاقه.

فجعل بعض طلبة العادلية يقول: إن ابن خلدون كبير الطمع ساقط الهمة مذ أراد أن يلتحق ببطانة هذا الطاغية. ويترك وطنه المحبوب.

ولكن حقق بعضهم أن ابن خلدون لم يمكنه إلا أن يظهر الرغبة في اصطحاب تيمور، ثم تخلص منه بأن قال له: إن لي تاريخاً كبيراً جمعت فيه الوقائع بأسرها. وقد خلفته في مصر وسيظفر به المجنون (يعني به الناصر فرج ملك مصر). واستأذنه في أن يذهب الى مصر، فيجيء بأجزاء تاريخه ثم يعود اليه ويصحبه الى بلاده. فأذن له تيمور. وإذ ذاك أسرع ابن خلدون الى مصر أهدى من القطا الكدري. وهكذا نجا من تيمور.

ومما يدل على مقت ابن خلدون لتيمور ما كتبه الى سلطان مراكش وهو قوله:

(ويخطيء اولئك الذين يقولون إن تيمور عالم جدا: فهو رجل وافر الذكاء. مولع بالمجادلة فيما يعلم وفيما لا يعلم)

* * *

وبعد ايام من رجوع الوفد وعقدهم الصلح مع تيمور أخلف تيمور وعده ونقض عهده وارتكب جنوده المنكرات في دمشق، مما هو مسطر في التاريخ. ثم لم يرع الناس الا وصول وفد من ملك مصر الى تيمور يعقد معه

الصلح . و بعد ان اتم رجال الوفد مهمتهم وارادوا العودة الى مصر ارسل تيمور معهم الى ابن خلدون مبلغاً من المال مكافأة له على هدية البغلة قالوا فحمد ابن خلدون ربه على أن عوضه ثمنها و نجـــاه من تيمور . و بقي ابن خلدون في القاهرة حتى وافاه حمامه سنة ٨٠٨ هـ و ١٤٠٨ م

☆ ☆ ☆

هذا هو ايها السادة حديثنا عن ابن خلدون في العادلية وهو بعض اخباره ونفحة طيبة من نفحات ازهاره . وهناك أخبار و وقائع جمة تكفل ببيانها من ترجم له . او وضع مصنفا خاصا في سيرة حياته . وقد طرق مترجموه مباحث مختلفة في الكلام عليه . ومن امتع تلك المباحث واجدرها بالدرس المقارنة بينه و بين غيره من رجال التاريخ وفلاسفة العلم

من ذلك أنهم قارنوا بينه و بين ارسطو من حيث ان كلا منهما كتب في العمران كتابة متشابهة المناحي . و بعضهم شبهه بأبي العلاء المعرى : فقد كان كل منهما متشائما متبرما بالزمن واهله . ولكن الاستاذ طه حسين انكر هذه المشابهة وذهب الى ان ابن خلدون كان امره على العكس ، فهو اقرب الى التفاؤل والابتهاج والثقة بالظفر .

ومر معنا في القسم الأول من المحاضرة تشبيهه بالمتنبي من حيث التطلع الى الرئاسات والمناصب الكبرى حتى كانت الملوك تحاذرهما . وتدفع في صدورهما عن الوصول الى غرضهما ولسان حال كل منهما يقول :

اهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه واطارد ،

وشبهه بعض شبابنا المتعلمين بمونتسكيو ، وقال انه قرأ كتاب مونتسكيو

الذى سماه (اسباب سقوط الرومانيين ونهوضهم) ثم قرأ مقدمة ابن خلدون فوجدهما قد تواردا في كثير من المباحث الاجتماعية . ومونتسكيو كان بعد ابن خلدون بأكثر من ثلاثة قرون .

وقال آخرون ان ابن خلدون يشبه (ميكيافيللى) السياسي الايطالي الذي الف كتابا سماه (الامير) واودعه من امر قيام الدول والحكومات وسياسة الممالك والطرق المؤدية الى دوامها وثبات امرها ما يشبه من بعض الوجوه آراء ابن خلدون في مقدمته . حتى ان صديقنا العلامة احمد زكي باشا المصري قال ان (ميكيافيللى) عاش بعد ابن خلدون بنحو مائة واربعين سنة ، ورجح انه استرق بعض افكاره وانتحلها لنفسه في كتابه (الامير) . ولكن هناك فرق كبير بين الرجلين . فان الفيلسوف الايطالي (ميكيافيللى) جعل نجاح الدول يتوقف على دوس العدل والانسانية ، على العكس من ابن خلدون فأنه حقق في مقدمته ، ان نجاح الدول متوقف على خلال الخير فقد قال : (ان خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك . لأن المجد له اصل يبنى عليه ، وهو العصبية . وله فرع يتم وجوده به ، وهو خلال الخير) فمذهب ابن خلدون اذن ان المجد ونجاح الحكومات لا تتم الا بالخير وهذا على عكس ما قرره ميكيافيللى في كتابه (الأمير)

وقال آخرون ان ابن خلدون يشبه سبنسر فيلسوف الانكليز الاكبر . وذلك في أن آراءهما متشابهة في علل تكون الجماعات البشرية . ونشوء النظم الاجتماعية .

أما صديقنا ونزيل دمشق في هذه الايام المستشرق الكبير الاستاذ

(ماسينيون) فقد قارن بين ابن خلدون و(اوغست ونت)العالم الافرنسي المشهور بفلسفته الوضعية . وقال إن كلا منهما ينبغي أن يعد أباً لموضوعه المختص به : ابن خلدون للعمران وفلسفته و (أوغست كونت) للاجتماع الحديث . وكنا نرجى أن يكون فيلسوفنا العربي هو واضع علم الاجتماع الحديث. لكن الاستاذ ماسينيون أبى علينا ذلك وذهب الى أن واضع الاجتماع الحديث هو اوغست كونت

اما ابن خلدون فهو واضع علم العمران . والفرق بين العلمين على ما فهمته من العلامة ماسينيون ان علم الاجتماع الحديث مؤسس على فلسفة (أوغست كونت) الوضعية وهي انما تستمد حقائقها من الكون المادي المحض مباشرة ولا تعول على الوحي ولا الروح ولا العالم غير المادي .

أما ابن خلدون فان فلسفته تستند في بعض مناحيها على الوحي والنبوة والروح وعالم الغيب . فمن ثم لم يكن علم ابن خلدون علما اجتماعياً بالمعنى الحديث ولم يكن هو واضع (علم الاجتماع) وانما هو واضع (علم العمران) و واضع علم الاجتماع هو (اوغست كونت) الافرنسي .

هذه هي خلاصة رأي صديقنا ماسينيون في وجه التماثل ووجه التباين بين الفيلسوفين الفيلسوف العربي والفيلسوف الافرنسي. ويمكننا أن نقول جواباً على ما قاله ماسينيون أن ابن خلدون هو واضع علم الاجتماع ثم قام على أثره مونتسكيو ومكيافللي وسبنسر واوغست كونت فشرحوا هذا العلم وزادوه تمحيصاً وتحقيقاً . وجردوه من مباحث الوحي والروح وجعلوه مادياً محضا وكل هذا لا ينافي ان يكون فيلسوفنا العربي هو واضع هذا العلم .

إذ ما على واضع علم من العلوم أن يستوفي ابحاثه ويستقصي جميع مسائله .

* * * * *

سمعتم أيها السادة كيف أعملوا المقارنة بين ابن خلدون وبين رجال التاريخ من زمن أرسطو قبل المسيح بثلاثة قرون الى زمن اوغست كونت المتوفى في اواسط القرن الماضي (١٨٥٧ م)

ولكن ألا يخطر ببالكم أن يكون ابن خلدون مشابهاً لأحد فلاسفتنا الشرقيين المعاصرين ؟؟ نعم أيها السادة إن ابن خلدون يشبه ولا ريب فيلسوفا مسلما سياسياً عصرياً : يشبه السيد جمال الدين الافغاني لامن وجه واحد بل من عدة وجوه :

فقد درس كل منهما العلوم الاسلامية ثم امتاز على شيوخ زمانه بمهارته في الحكمة والفلسفة وترغيب المسلمين في دراستها والاستفادة من حقائقها .

كان كل من الرجلين يشتغل بالسياسة ويحرص على الرئاسة . كان كل منهما سليم الصدر سهل الاستمالة طاهر القلب ظاهره وباطنه سواء ، كما كان كل منهما متسرعاً حديد المزاج . فابن خلدون وصفه صديقه وزير الاندلس لسان الدين بن الخطيب بانه بعيد عن التأني . وقال ان هذا الخلق هو سبب نكباته ، وتحامل رجال الدولة عليه .

وبمثل ذلك وصف الشيخ محمد عبده صديقه واستاذه جمال الدين الافغاني فقد كانا معاً في باريز ينشئان جريدة (العروة الوثقى) ويسعيان في تحقيق (التعاون النزيه) مع اقطاب السياسة الأوربية من أجل الوصول الى بعض اماني الشرقيين . لكن كان جمال الدين أحيانا يحتد اثناء المناقشة مع

رجال السياسة كغلادستون مثلا . وينتج عن حدته و تسرعه احيانا انهيار ما كانا اسساه وكذلك قال الشيخ محمد عبده في ترجمة السيد جمال الدين مشيراً الى ما قلنا (وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة)

كان كل من ابن خلدون و جمال الدين يعمل عقله في فهم تعاليم الاسلام مستقلا مجتهداً . لامتابعا مقلدا . وكان كل منهما يعنى في توفير مصالح المسلمين العامة ويحرص على اصلاح الجماعات الاسلامية من طريق التوفيق بين اصول الاسلام الصحيحة و بين قواعد علم الاجتماع التي ظهرت فائدتها في اصلاح شؤون البشر وانتظام احوال الجماعات وان حرصهما على تطبيق فكرتهما هذه في العالم الاسلامي من دون تقية ولا جمجمة وكذا مقاومتها للخرافات والتقاليد الداخلية في الدين — كل ذلك اثار في وجههما الخصوم واوجد لهما الحساد والمنافسين في كل بلد نزلا فيه او بلاط ملكي تقربا منه .

فما أشبه حالة ابن خلدون في بلاط غرناطه وفاس وتونس والقاهرة منذ خمسة قرون . بحالة جمال الدين الافغاني في بلاط كابل وطهران والقاهرة والاستانه في عصرنا الحاضر وان كان الشيخ الافغاني قد ابتلاه الله من الشيوخ الجامدين بالشيخ (عليش) المغربي الذي كان يحمل عكازته ويروغ بها على تلامذة الافغاني وهم يدرسون الفلسفة في احدى زوايا الازهر — فان ابن خلدون ابتلاه الله وهو في تونس بشيخ جامد ايضا وهو (ابن عرفه) الذي كان يحسد ابن خلدون على اعجاب الناس به . واقبال الطلاب على حلقة درسه . حتى روى ابن خلدون ان ابن عرفة هذا كان يسعى به لدى حكام تونس ويغريهم بتغريبه والبطش به .

عرض (بترو) ملك الاسبان على ابن خلدون ان يريح نفسه من العناء ويقيم عنده وهو يغدق عليه من زهرة الحياة الدنيا ما شاء ، فابى . وكذلك السلطان عبدالحميد عرض على جمال الدين ان يريح نفسه من عناء السياسة عامة ومقاومة ناصر الدين شاه ملك العجم خاصة . ثم هو يزوجه إحدى حظايا قصره فابى عليه ذلك وقال لنا جمال الدين مذ اجتمعنا به في الاستانة انه اذا تزوج بعد بلوغه هذا السن كان مستغرباً كما يستغرب من الشيخ عليش ان يذهب مع تلامذته الى الازبكية ويشرب قدحين من البيره .

مات ابن خلدون في دار الغربة بمصر ودفن في مقابر الصوفية في خارج باب النصر ، وقبره غير معروف شأن من يموت غريباً . وهكذا جمال الدين فانه مات غريباً في الاستانة ودفن في تربة (شيخلر مزارلغي) قرب نشانطاش وكاد قبره يندرس لو لم يتداركه (المستر كراين) الاميركي فينبي له ضريحاً فخماً يناسب شهرته ومنزلته. فمن لنا بكراين آخر يبني لنا ضريح فيلسوفنا العربي ابن خلدون !!

(كان ابن خلدون آخر نجم سطع في سماء التفكير الاسلامي الحر) كما قال عنه كاتب ترجمته العلامة الالماني الاستاذ (فون فيزدندونك) . عاش ابن خلدون في أشد أزمان العالم الاسلامي إظلاماً من الوجهة الاستقلالية والسياسية : فكان كنجم أنار تلك الظلمات ثم أفل .

كان عربياً صميماً شديد الغيرة على دينه وملك قومه وقد رأى هذا الملك مفككاً مضمحلاً . استولت عليه الأعاجم من أواسط آسيا الى شمال افريقية، الى غرب أوربا. دويلات مغولية وتركية وبربرية قامت في كل مكان

على انقاض الدول العربية الصريحة. ساح بنفسه في تلك الممالك: من اشبيلية في الغرب الى الحجاز ودمشق في الشرق. رأى بعيني رأسه تيمور المغولي في الشرق يجتاح سوريا كما رأى بعيني رأسه (بترو) الاسباني في الغرب يجرمز ويجمع نفسه للاثوب على غرناطة آخر مملكة عربية في الاندلس.

كان ابن خلدون يرى ذلك فتتقطع نفسه حسرات عـــلى ذلك الملك الضائع. والبناء المتقوض.

كان يسيح في العالم الاسلامي فاحصاً منقباً فيدرّس ويكتب ويؤلف ويهز النفوس الجامدة. ويتلتل الهمم الخامدة. كان كلما صرخ لم يجب إلا برجع الصدى. وكلما حذر وأنذر لم يقابل الا بالأعراض والجفا.

انطفأت تلك الشعلة واغمض ابن خلدون عينيه في ذلك الظلام الدامس. وبعد خمسة قرون من موته عاد فعاش ونشر من قبره ممثـــلا في السيد جمال الدين الافغاني

فتح جمال الدين عينيه ورأ رأ بتوأمتيه، وادارهما يمنة ويسرة في جنبات العالم الاسلامي. فماذا رأى؟

راى ما كان رآه ابن خلدون منذ خمسة قرون. راى الظلام ظلاما. والقوم نياما. راى تيمور لنك المغولي ممثلا في السلطان عبد الحميـــد. وبترو الاسبانيولي متقمصاً فيكتوريا ملكة الانكليز.

قام جمال الدين من قبر ابن خلدون فكان همه همه. وغرضه من الحياة غرضه: هاتوا حقيبة السفر وعصا السياحة. ساح جمـــال الدين في العالم الشرقي والغربي: الى مكة ومصر وطهران والاستانة، إلى بطرسبورج وفينـا

ولندرة و باريس . راى موتا في جانب . وحياة في جانب . راى اتكالا وقناعة من قوم . وسعياً وطمعاً من آخرين . رائى جهلا و بطالة و كسلا هنـــا وعلما وعملا ونشاطا هناك .

هذا الشيخ (عليش) في مصر و (حسن فهمي) افندي شيخ الاسلام في الاستانة يقاومان جمال الدين كما قاومه (ابن عرفة) في تونس و (القاضي البساطي) في القاهرة منذ خمسة قرون . التاريخ يعيد نفسه .

أيها المنشور من تحت رجام القبور ، عد الى الخطابة والكتابة وارفع الصوت بالحض والانذار ، ومر المسلمين بترك الخلافات ونبذ الاوهـــام والخرافات. هات أسمعنا التوجع والأنين . و آهات (أرميا) الحزين .

(بكائي على السالفين . ونحيبي على السابقين . اين انتم يا عصبة الرحمة . وأولياء الشفقة . أين انتم يا أعلام المروءة وشوامخ القوة . أين انتم يا آل النجدة . وغوث المضيم يوم الشدة . اين انتم يا خير امـــة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . أين انتم يا أيها الامجاد الانجاد . القوامون بالقسط . الاخذون بالعدل . الناطقون بالحكمة . المؤسسون لبناء الامة . ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم . وما أصاب ابناءكم ومن ينتحل نحلتكم . انحرفوا عن سنتكم . وحادوا عن طريقتكم فضلوا عن سبيلكم . وتفرقوا فرقاً واشياعا حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب اسفاً . وتحترق الاكباد حزنا . اضحوا فريسة للامم الاجنبية

لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم . ولا دفاعا عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم . ينبه الغافل ويوقظ النائم . ويهدي الضال الى سواء السبيل . إن لله وانا اليه راجعون [1])

ولكن هل يئس جمال الدين من يقظة الشرق وسعي الشرقيين في الاصلاح ؟ كلا لم ييأس : فهو وان كان قد رأى شجرة العالم الاسلامي اصبحت اعواداً يابسة . لكنه رأى خلال الاعواد والاشواك وريقات خضراء . فتهلل وجهه بعد العبوس وانتعشت نفسه بعد القنوط وسائل نفسه قائلا ؟ هل هذه الاوراق الخضر . المتفرقة هنا وهناك من هذه الشجرة او راق قديمة باقية من الحياة الاولى يا ترى ؟ او هي اوراق جديدة حييت بحياة جديدة ؟ ؟

اذن في الشجرة اخضرار . في المريض رمق . في الجسم ذماء . فلنجتهد اذن ولنعمل على احياء الشجرة .

عمل جمال الدين واجتهد حتى كل وتعب . ولقي من مر الحياة وحلوها ما لقيه ابن خلدون الاول .

كلا الخلدونيين لم يخلف ولدا . لكن الفرق ان ابن خلدون العربي خلف مقدمته الاجتماعية المشهورة :

---

(١) هذه القطعة المكتوبة بين الهلالين مقتبسه من جريدة العروة الوثقى التي كان ينشئوها السيد جمال الدين

اما ابن خلدون الافغاني فانه لم يخلف كتبا ولا مقدمة . وانمـــا خلف الأمة[1] التي ايقظها فاستيقظت واخذت تخوض عباب الحياة بجد وثبات فهي لا تلبث ان تصل الى ساحل النجاة .

(١) خطب سعد باشا زغلول في ١٩ ايلول سنة ١٩٢٣ عقب عودته من جبل طارق ، مصر فقال : لست خالق هذه النهضة — كما قال بعض خطبائكم — لا اقول ذلك ولا ادعيه بل لا اتصوره : انما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المالكة . وللحركة العربية فصل عظيم فيها . وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني واتباعه وتلاميذه اثـــر كبير . . . كل هذا حق ويجب علينا ان لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق الا الضعيف .